(١٤)

في الزيدية والرافضة

تحتل هذه الرسالة في مخطوطة قبو سراي المذكورة الورقات ١٢٩ـ١٣٢ وبها تنتهي المخطوطة وقد جاء في آخرها :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيدالله بن حسان ، من كتب ابي عثمان عمرو بن بحر رحمه الله ، قال في(*) نسخه افاضل ، وكتبه عبيدالله بن علي ابو القاسم لخاصته ، في أوائل رجب سنة ثلاث واربع مائة ، بارك الله فيه ، ووافق الفراغ من كتابة هذه النسخة في سلخ شعبان المكرم سنة ثمانين والف على يد العبد الفقير محمد ابو الصلاح الحنفي الشهير بالقطري ، وذلك بمحروسة مصر ، بجوار المشهد الحسيني » .

وقد اتخذت من هذه المخطوطة اصلا ، واتخذت ما جاء في حاشية الكامل اصلا مساعدا اقابل عليه ، وتقع الرسالة في الجزء الثاني الصفحات ٢٩١ـ٣٠١ من طبعة التقدم سنة ٢٣ـ ١٣٢٤ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١٢٩ب) اعلم يرحمنا الله واياك ، أن شيعة علي رضي الله[١] عنه : زيدي[٢] ، ورافضي[٣] . وبقيتهم بدد لا نظام لهم ، وفي الأخبار عنهما غنى عما[٤] سواهما . قالت علماء الزيدية : وجدنا الفضل في الفعل دون غيره ، ووجدنا الفعل كله في أربعة أقسام ، أولها : القدم في الاسلام ، حين لا

(*) كذا في الأصل والصواب : قام في نسخه .

(١) في ك : الله تعالى .

(٢) زيدي : نسبة الى زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، كان فقيها بارعا ، اخذ عن واصل بن عطاء علم الاعتزال ، وكانت له جولات مع الأمويين ، حبسه عبدالملك بن مروان في الشام ، ثم رحل الى الكوفة فالتف حوله الشيعة وحرضوه على قتال الأمويين سنة ١٢٠هـ ، وبايعه اربعون الفا على الدعوة الى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين ونصرة اهل البيت ، فكتب يوسف ابن عمر الثقفي عامل العراق الى الحكم ابن الصلت في الكوفة ان يقاتل زيد بن علي ، فنشبت بينهم معارك انتهت بمقتل زيد في الكوفة ، ثم صلب على خشبة الى سنة ١٢٦هـ ثم انزل بعد اربع سنين واحرق ، وحمل رأسه الى الشام فنصب على باب دمشق ، ثم ارسل الى المدينة فنصب عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارسل الى مصر فسرقه اهل مصر ودفنوه .
(انظر في ترجمته مقاتل الطالبيين ط الحلبي ص ١٢٧ والطبري ٨/٢٦٠ـ٢٧١ وتاريخ ابن الأثير ٥/٨٤ والاعلام ٣/٩٨ـ٩٩) .

(٣) مر شرح الرافضة في رسالة فضيلة صناعة الكلام ..

(٤) ك : غناء عن .

رغبة ولا رهبة ، الا من الله تعالى واليه ، ثم الزهدفي الدنيا ، فان أزهد الناس في الدنيا[٥] أرغبهم في الآخرة ، وآمنهم على نفائس الأموال ، وعقائـل النساء ، واراقة الدماء ، ثم الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم ، ومراشد دينهم ، ثم المشي بالسيف كفاحا في الذب عن الاسلام ، وتأسيس الدين ، وقتل عدوه ، واحياء وليه ، فليس فوق بذل المهجة ، واستغراق القوة ، غاية يطلبها طالب ، أو يرتجيها راغب . ولم نجد قولا خامسا فنذكره ،فلما رأينا هذه الخصال مجتمعة في رجل دون الناس كلهم ، وجب علينا تفضيله عليهم ، وتقديمه دونهم ،وذلك[٦] انّا سألنا العلماء والفقهاء ، وأصحاب الأخبار ، وحمال الآثار ، عن أول الناس اسلاما ،فقال فريق منهم : عليّ ، وقال قوم : زيـد بن حارثة[٧] ، وقال قوم : خبّاب [٨] ، ولم نجد قول كل واحد منهم من هذه الفرق قاطعا لعذر صاحبه ، ولا ناقلا عن مذهبه ، وان كانت الرواية في تقديم عليّ أشهر ، واللفظ به أكثر ، وكذلك اذا سألناهم عن الذابين عن الاسلام بمهجهم ، والماشـين الى الأقران بسيوفهم ، وجدناهم مختلفين ، فمن قائل يقول : علي رضي الله[٩] عنه ، ومن قائل يقول :الزبير[١٠] ، ومن قائل يقول : ابن عفراء[١١] ، ومن

(٥) ك : في الناس .

(٦) ك : وذاك .

(٧) هو زيد بن حارثة بن شـراحيل الكلبي ، صحابي ، اختطف في الجاهلية صـغيرا ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته الى النبي صلى الله عليه وسلم حين تزوجها ، فتبناه النبي قبل الاسلام ، وأعتقه وزوجه بنت عمته ، كانوا يسمونه : زيد بن محمد ، حتى نزلت آية : (ادعوهم لآبائهم) ، وهو من أقدم الصحابة اسـلاما ، وكان النبي يؤمره على السرايا ويحبه ويقدمه ، وجعل له الامارة في غزوة مؤتة فاستشهد سـنة ثمان من الهجرة .

(انظر ترجمته في الاصابة ٥٦٣/١ والخزانة ٣٦٣/١ والروض الأنف ١٦٤/١ والاعلام ٩٦/٣) .

(٨) خبّاب : هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي ، كان في الجاهلية قينا يعمل السيوف بمكة ، فلما ظهر الاسلام اسـلم سادس ستة ، وهو أول من اظهر اسلامه ، استضعفه المشركون فعذبوه ليرجع عن دينه فصبر الى أن كانت الهجرة ، وشـهد المشاهد كلها ، ونزل الكوفة فمات فيهـا سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، مرّ علي بن ابي طالب بقبره حين رجع من صفين فقال : (رحم الله خبابا ، أسلم راغبـا ، وهاجر طائعـا ، وعاش مجاهدا) .

(انظر ترجمته في الاصابـة ٤١٦/١ وحلية الاولياء ١٤٣/١ والاعلام ٣٤٤/٢) .

(٩) ك : الله تعالى .

(١٠) الزبير : هو الزبير بن العـوام بن خويـلد الأسدي القرشي ، أبو عبدالله بن الزبـير ، وأول من سل سيفه في الاسلام ، وهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، اسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وشهد بـدرا وأحـدا وغيرهما ، وكان على بعض الكراديس في اليرموك ، وشهد الجابيـة مع عمـر بن الخطاب ، وجعله عمر أحد الستة المرشحين للخلافة بعده ، وكان موسرا كثير الأموال ، خرج مع طلحة بن عبيد الله على علي بن ابي طالب في الجمل ، وقتله ابن جرموز التميمي غيلة بوادي السباع قرب البصرة سنة ست وثلاثين .

(انظر : حلية الأولياء ٨٩/٠ وتهذيب ابن عساكر ٣٥٥/٥ والخزانة ٤٦٨/٢ والاعلام ٧٤/٣) .

(١١) ابن عفراء : هو عوف بن الحارث بن رفاعة ←

قائل يقول : محمد بن مسلمة[١٢] ، ومن قائل يقول : طلحة[١٣] ، ومن قائل يقول : البراء بن مالك[١٤] . على ان لعلي من قتل الأقران والفرسان ما ليس لهم ، فلا أقل من أن يكون علي في طبقتهم، وان سألناهم عن الفقهاء والعلماء ، رأيناهم يعدون عليا[١٥] أفقههم ، وعمر ، وعبدالله بن مسعود[١٦]،

ابن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار ، وهو ابن عفراء ، أحد ستة نفر من الخزرجيين الذين التقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، شهد عوف بدرا مع أخويه معاذ ومعوذ ، وقتل هو ومعوذ شهيدين يوم بدر .

(انظر ترجمته في الاستيعاب والسيرة النبوية ٤٢٩/٢ و ٧٠٨) .

(١٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي ، صحابي من الأمراء من اهل المدينة شهد بدرا وما بعدها الا غزوة تبوك، وهو الذي قتل كعب بن الأشرف اليهودي، استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في بعض غزواته ، وولاه عمر على صدقات جهينة ، واعتزل الفتنة ايام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين ، يقال انه اتخذ سيفا من خشب بعد وفاة النبي ولم يشهد شيئا من حروب الفتن الى أن مات بالمدينة سنة ثلاث واربعين .

(انظر : الاصابة ترجمة رقم ٧٨٠٨ والبدء والتاريخ ١٢٠/٥ والاعلام ٣١٨/٧).

(١٣) طلحة : هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي ، صحابي شجاع من الأجواد كان يعرف بطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الفياض ، لقبه بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في مناسبات مختلفة ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد الثمانية السابقين الى الاسلام ، كان من دهاة قريش وعلمائهم، شهد أحدا وثبت مع رسول الله وشهد الخندق وسائر المشاهد ، كانت له تجارة وافرة مع العراق ، ولم يكن يدع أحدا من بني تيم عائلا الا كفاه مؤونته ومؤونة عياله ووفى دينه ، قتل يوم الجمل بجانب عائشة ودفن بالبصرة سنة ست وثلاثين .

(انظر : ابن سعد ١٥٢/٣ وحلية الأولياء ٨٧/١ وابن عساكر ٧١/٧ والاعلام ٣٣١/٣) ٧

(١٤) هو البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم الخزرجي ، أخو الصحابي انس بن مالك ، كان من أشجع الناس شهد أحدا وما بعدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب عمر الى عماله : (لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فانه مهلكة ، يقدم بهم) وكان في مظهره (ضعيفا متضعفا) قتل مائة شخص في مبارزة عدا من قتل في المعارك ، قيل ان المسلمين انتهوا الى حائط قد اغلق بابه فيه رجال مشركون فجلس البراء على ترس وقال : ارفعوني برماحكم فالقوني اليهم ، ففعلوا فأدركوه وقد قتل منهم عشرة ، وكان على ميمنة أبي موسى الأشعري يوم فتح تستر ، فاستشهد على بابها الشرقي سنة ٢٠ هـ وفيها قبره .

(انظر : حلية الأولياء ٣٥٠/١ تاريخ الاسلام ٣٠/٢ صفة الصفوة ٢٥٦/١ الاعلام ١٥/٢) .

(١٥) في الاصل : كان افقههم .

(١٦) هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، صحابي من اكابرهم فضلا وعقلا وقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من أهل مكة السابقين الى الاسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، كان خادم الرسول وصاحب سره ، ورفيقه في حله وترحاله ، قال عنه عمر انه : (وعاء مليء علما) ، ولي بعد وفاة النبي بيت مال الكوفة ، توفي بالمدينة في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين .

(انظر : الاصابة ترجمة ٤٩٥٥ حلية الأولياء ١٢٤/١ صفة الصفوة ١٥٤/١ الاعلام ٢٨٠/٤) .

وزيد بن ثابت[١٧] ، وأبيّ بن كعب[١٨] . على انعليا كان أفقههم ، لأنه كان يُسأل ولا يسأل[١٩] ، ويفتى ولا يستفتى ، ويحتاج اليه ولا يحتاج اليهم ،ولكن لا أقل من أن نجعله في طبقتهم ، وكأحدهم ، وان سألناهم عن أهل الزهادة ، وأصحاب التقشف(١٣٠ أ) المعروفين[٢٠] برفض الدنيا ، وخلعها ، والزهد فيها ، قالوا : عليّ ، وأبو الدرداء[٢١] ،ومعاذ بن جبل[٢٢] ، وأبو ذر[٢٣] ،

(١٧) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ، أحد أفاضل الصحابة ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ونشأ بمكة ، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين ، وهاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن احد عشر عاما ، تعلم الفقه وتفقه بالدين فكان راس القضاء والفتوى والقراءة والفرائض بالمدينة ، وكان عبدالله بن عباس على جلالة قدره وسعة علمه يأتيه الى بيته للأخذ منه ويقول : العلم يؤتى ولا يأتي ، وأخذ ابن عباس بركاب زيد فنهاه زيد فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فأخذ زيد كفه وقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا . كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ثم لعثمان حين جهز المصاحف الى الأمصار ، توفي سنة خمس وأربعين .
(انظر : صفة الصفوة ٢٩٤/١ وغاية النهاية ٢٩٦/١ والاعلام ٩٦/٣) .

(١٨) أبى بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار من الخزرج ، صحابي انصاري ، كان قبل الاسلام حبرا من أحبار اليهود مطلعا على الكتب القديمة ، ولما اسلم كان من كتاب الوحي ، شهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتي على عهده ، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية ، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس ، وامره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه ، مات بالمدينة سنة احدى وعشرين .
(انظر : ابن سعد ٥٩/٣ وحلية الأولياء ٢٥٠/١ وصفة الصفوة ٨٨/١ والاعلام ٧٨/١) .

(١٩) ك : يسئل ولا يسأل .

(٢٠) ك : والمعروفين .

(٢١) ابو الدرداء : هو عويمر بن مالك بن قيس ابن امية الأنصاري الخزرجي ، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجرا بالمدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والنسك ، وفي الحديث : (عويمر حكيم امتي) و (نعم الفارس عويمر) ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب وهو أول قاض فيها ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبي ، مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين .
(انظر : ابن سعد ٥٩/٣ وحلية الأولياء ٢٠٨/١ وتاريخ الاسلام ١٠٧/٢ والاعلام ٢٨١/٥) .

(٢٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري صحابي جليل ، كان اعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، اسلم وهو فتى ، وآخى النبي بينه وبين جعفر بن ابي طالب ، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين ، شهد بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعثه الرسول بعد غزوة تبوك قاضيا ومرشدا لأهل اليمن ، ثم عاد الى المدينة بعد وفاة النبي ، ثم كان مع ابي عبيدة بن الجراح في غزو الشام ولما اصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذا واقره عمر بن الخطاب ، فمات في سنة ثماني عشرة بناحية الأردن .
(انظر : ابن سعد ١٢٠/٣ والاصابة ترجمة ٨٠٣٩ وحلية الأولياء ٢٢٨/١ والاعلام ١٦٦/٨) .

(٢٣) أبو ذر الغفاري : واسمه جندب جنادة بن سفيان بن عبيد من بني غفار من كنانة بن خزيمة ، صحابي جليل قديم الاسلام ، اسلم بعد أربعة وكان خامسا ، يضرب به المثل في الصدق ، أول من حيى رسول الله ←

وعمار[٢٤] ،وبلال[٢٥] ، وعثمان بن مظعون[٢٦] ، على ان عليا أزهدهم،لأنه شاركهم في خشونة الملبس، وخشونة المأكل ، والرضا باليسير ، والتبلغ[٢٧] بالحقير ، وخاف[٢٨] النفس ، ومخالفة الشهوات ، وفارقهم بأن ملك بيوت الأموال ، ورقاب العرب والعجم ، فكان ينضح بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ، ورقع سراويله بأدم[٢٩] ،وقطع ما فضل من ردنه[٣٠] عن أطراف أصابعه بالشفرة في أمور كثيرة ، مع ان زهده أفضل من زهدهم ، لأنه أعلم منهم ، وعبادة العالم ليست كعبادة غيره ، كما ان زلته ليست كزلة غيره ، فلاأقل من أن نعده في طبقهم ، ولا نجدهم ذكروا لأبي الدرداء ، وأبي ذر ، وبلال ، مثل الذي ذكرواله في باب الغناء والذب وبذل النفس ، ولم نجدهم ذكروا للزبير ، وابن عفراء ، وأبي دجانة[٣١] ،والبراء بن مالك ، مثل الذي ذكروا له من التقدم

صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام ، هاجر بعد وفاة النبي الى بادية الشام فأقام الى زمن عثمان فسكن دمشق وجعل ديدنه تحريض الفقراء على مشاركة الأغنياء اموالهم ، فاضطرب هؤلاء فشكاه معاوية والي الشام الى عثمان فاستقدمه الى المدينة ثم أمره بالرحلة الى الربذة احدى قرى المدينة فسكنها الى ان مات معدما سنة اثنتين وثلاثين ولم يكن في داره ما يكفن به .

(انظر : ابن سعد ١٦١/٤ وحلية الأولياء ١٥٦/١ والأصابة ٦٠/٧ والاعلام ١٣٦/٢) .

(٢٤) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي القحطاني ، صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي ، أحد السابقين الى الاسلام والجهر به ، هاجر الى المدينة وشهد بدرا واحدا والخندق وبيعة الرضوان ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقبه بـ (الطيّب المطيّب) ، وهو أول من بنى مسجدا في الاسلام في المدينة وسماه مسجد قباء ، ولاه عمر بن الخطاب الكوفة وشهد الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب ، وقتل في صفين سنة سبع وثلاثين .

(انظر : الاستيعاب والاصابة ترجمة ٥٠٧٦ والطبري ٢١/٦ وحلية الاولياء ١٣٩/١ والاعلام ١٩٢/٥) .

(٢٥) بلال : هو بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخازنه على بيت المال ، احد السابقين الى الاسلام شهد المشاهد مع الرسول ، ولما توفى الرسول اذن بلال ثم لم يؤذن بعد ذلك ، واقام حتى خرجت البعوث الى الشام فسار معهم ، وتوفى في دمشق سنة عشرين .

(انظر : ابن سعد ١٦٩/٣ وحلية الأولياء ١٤٧/١ وصفة الصفوة ١٧١/١ والاعلام ٤٩/٢) .

(٢٦) هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي ، صحابي كان من حكماء العرب في الجاهلية يحرم الخمر ، اسلم بعد ثلاثة عشر رجلا ، هاجر الى ارض الحبشة مرتين ، كان ميالا الى الزهد والتقشف والتبتل ، شهد بدرا ، وهو اول من مات بالمدينة من المهاجرين واول من دفن بالبقيع منهم سنة اثنتين ، ولما مات جاءه النبي صلى الله عليه وسلم فقبله ميتا حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان .

(انظر : ابن سعد ٢٨٦/٣ والاصابة ترجمة ٥٤٥٥ وحلية الأولياء ١٠٢/١ والاعلام ٣٧٨/٤) .

(٢٧) ك : والتبليغ .

(٢٨) ك : وصلف النفس .

(٢٩) (بأدم) ساقطة من ك . والأدم الجلد .

(٣٠) في ك : من ردائه .

(٣١) أبو دجانة : هو سماك بن خرشة الخزرجي البياضي الأنصاري ، صحابي شجاع بطل ، شهد بدرا واحدا واصيب بجراحات كثيرة يوم احد ، وهو معروف بمشيته في الخيلاء في الحرب ، يقال له (ذو السيفين) لقتاله يوم احد بسيفه وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . استشهد باليمامة سنة احدى عشرة .

(انظر في ترجمته : الاصابة رقم ٣٧١ وثمار القلوب ص ٦٨ والتاج (دجن) والمحبر ص ٧٢ والاعلام ٢٠٢/٣) .

في الاسلام ، والزهد ، والفقه ، ولم نجدهم ذكروالأبي بكر ، وزيد ، وخبّاب ، مثل الذي ذكروا له من بذل النفس والغنـاء والذب بالسـيف ، ولاذكروهم في طبقة الفقهاء والزهاد ، فلما رأينا هذه الأمور مجتمعة فيه ، متفرقة في غيره من أصحاب هذه المراتب ، وهذه الطبقات ، علمنا أنه أفضلهم ، وان كان كل رجل منهم قد أخـذ من كل خـير بنصيب ، فانه لن يبلغ ذلك مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه .

فصـل منـه

وضرب آخر من الناس ، همج هامج ، ورعاع منتشر ، لا نظام لهم ، ولا اختبار عندهم ، أعراب أجلاف ، وأشـباه الأعراب ، يفترقون من حيث يجتمعون ويجتمعون من حيث يفترقون[٣٢] ، لا تدفع صولتهم اذا هاجوا ، ولا يؤمن هيجانهم اذاسكنوا ، ان أخصبوا طغوا في البلاد ، وان أجدبوا آثروا العناد ، ثم هم موكلون ببغض القادة ، وأهل الثراء[٣٣] والنعمة ، يتمنون النكبة ، ويشتمون بالعثرة ، ويسرون بالجولة ، ويترقبون الدائرة ، وهم ، كما وصفوا ، الطغام والسفلة . وقال علي رضي الله[٣٤] عنه في دعائه : « نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا ، واذا افترقوا لم يعرفوا » فهؤلاء هؤلاء . وضرب آخر : قد فقهـوا في الدين ، وعرفوا سبب الامامة ، وأقنعهم الحق ، وانقادوا له بطاعة الربوبية ، وطاعـة المحبـة ، وعرفوا المعدن ، ولكنهم قليل في كثير (١٣٠ ب) . ونجباء كل زمان[٣٥] وان كثروا ، فهم[٣٦] أقل عددا ، وان كانوا أكثر فقها ، فلما كان الناس عند عليّ ، وأبي بكر ، وعمر ، وأبي عبيدة[٣٧] ، وأهل السابقة من[٣٨] المهاجرين والأنصار ، على الطبقات التي نزلنا ، والمنازل التي رتبنا ، وبالمدينة منافقون يعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، وفيها بطانة لا يألونهم خبالا ، لا يخفى عليهم موضـع الشدة ، وانتهاز الفرصة ، وهم في ذلك على تقية ،

(٣٢) قوله : من حيث يجتمعون ... يفترقون . ساقطة من ك .

(٣٣) ك : وأهل الثرى .

(٣٤) ك : الله تعالى .

(٣٥) ونجباء كل زمان . ساقطة من ك .

(٣٦) في الأصل : وهم .

(٣٧) هو أبو عبيدة بن الجراح ، واسمه عامر بن عبدالله الجراح بن هلال الفهري القرشي ، صحابي احد العشرة المبشرين بالجنة ، يلقب بأمين الأمة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكل نبي امين وأميني أبو عبيدة بن الجراح) ، ولد بمكة وهو من السابقين الى الاسلام ، شهد المشاهد كلها ، ولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيوش في الشام بعد خالد ابن الوليد ففتح الديار الشامية وبلغ الفرات شرقا ، وآسيا الصغرى شمالا ، رتب للبلاد المرابطين والعمال ، وتعلقت به قلوب الناس لرفقه وأناته وتواضعه ، توفي في طاعـون عمواس ودفن في غور بيسان سنة ثماني عشرة من الهجرة .

(انظر : حلية الأولياء ١/١٠٠ والبدء والتاريـخ ٥/٨٧ وابن عسـاكر ٧/١٥٧ والاعلام ٤/٢١) .

(٣٨) (من) ساقطة من ك .

وافق[٣٩] ذلك ارتداد من حول المدينة من العرب،وتوعدهم بذلك في شكاة النبي صلى الله عليه وسلم[٤٠] ، وصح به الخبر ، ثم الذي كان منإجتماع الأنصار حيث انحازوا من المهاجرين ، وصاروا أحزابا ، وقالوا : منا أمير ومنكم أمير ،فأشفق عليّ أن يظهر ارادة القيام بأمر الناس ، مخافة أن يتكلم متكلم ، أو يشغب شاغب ممنوصفنا حاله ، وبينا طريقته[٤١] ، فيحدث بينهم فرقة ، والقلوب على ما وصفنا ، والمنافقون علىما ذكرنا ، وأهل الردة على ما أخبرنا ، ومذهب الأنصار على ما حكينا ، فدعاه النظر للدين الىالكف عن الاظهار ، والتجافي عن الأمور ، وعلم أن فضل ما بينه وبين أبي بكر في صلاحهم ، لوكانوا[٤٢] أقاموه ، لا يعادل التغرير بالدين ، ولا يفى بالخطار[٤٣] بالأنفس ، لأن في الهيج[٤٤]البائقة ، وفي فساد الدين فساد[٤٥] العاجلة والآجلة ، فاغتفر الخمول ضنا بالدين ، وآثرالآجلة على العاجلة ، فدل ذلك على رجاحة حلمه، وقلة حرصه ، وسعة صدره ، وشدة زهده ، وفرطسماحته ، وأصالة رأيه • ومتى سخت نفس امرىء عن هذا الخطب الجليل ، والأمر الجزيل[٤٦] ،نزل من الله تعالى بغاية منازل الدين ، وانما كانت غايتهم في أمرهم أربح[٤٧] الحالين لهم ، وأعونعلى المقصود[٤٨] ، اذ علم ان هلكهم لا يقوم[٤٩] بازاء صرف ما بين حاله وحال أبي بكر فيمصلحتهم •

فصل منه

وانما ذكرت لك مذهب من لا يجعل القرابةوالحسب سببا الى الأمامة ، دون من يجعل القرابة سببا من أسبابها وعللها ، لأني قد حكيتهفي كتاب الرافضة ، وكان ثم أوقع ، وبهم آليق ، وكرهت المعاد من الكلام والتكرار ، لأن ذلكيغني عن ذكره في هذا الكتاب ، وهو مسلك واحد، المذهب دون مذهب سائر الزيدية في دلائلهم[٥١]وحججهم ، لأنه أحسن شيء رأيته لهم ، وانما أحكى لك من كل نحلة قول حذّاقهم (١٣١ أ) ،وذوي أحلامهم، لأن فيه دلالة علىغيره ، وغنى عما سواه ، وقالوا : وقد يكون الرجل أفضل الناسويلى عليه من هو دونه في الفضل ، حتى يكلفه الله[٥٢] طاعته وتقديمه ، أما للمصلحة ، واماشفاقا[٥٣] من الفتنة ، كما ذكرنا وفسرنا ، واما

(٣٩) ك : ووافق .
(٤٠) في الاصل لم يثبت كلمة (وسلم) .
(٤١) ك : طريقة .
(٤٢) في الأصل : لو كان اخافوه .
(٤٣) ك : بالخطر .
(٤٤) ك : التهيج .
(٤٥) في الاصل : فغادر .
(٤٦) الجزيل : بياض في الأصل واثبتنا ما في ك .
(٤٧) ك : أربك . بياء مثناة .
(٤٨) في الاصل : واعود الم .... عليهم . الكلمة الوسطى ممسوحة ونصفها بياض .
(٤٩) ك : ان هلكتهم لا تقوم .
(٥٠) ك : وسبيل واحد .
(٥٢) ك : في ولائهم .
(٥٢) ك : تعالى .
(٥٣) ك : للاشفاق .

للتغليظ في المحنة ، وتشديد البلوى والكلفة ،كما قال[٥٤] تعالى للملائكة : « اسجدوا لآدم » والملائكة أفضل من آدم ، فقد كلفهم الله[٥٥]أغلظ المحن ، وأشد البلوى ، اذ ليس في الخضوع أشد من السجود على الساجد له ، والملائكةأفضل من آدم لأن جبريل وميكائيل واسرافيل عند الله[٥٦] من المقربين ، قبل خلق آدم بدهرطويل ، لما قدمت من العبادة ، واحتملت من ثقل الطاعة ، وكما ملّك الله طالوت على بني اسرائيل،وفيهم يومئذ داود النبي صلوات الله عليه[٥٧] ، وهو نبيهم الذي أخبر عنهم[٥٨] في القرآن :« وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » ، ثم صنيع النبي صلى الله عليه[٥٩] ، حينولى زيد بن حارثة على جعفر الطيار[٦٠] يوم مؤتة ، وولى أسامة[٦١] على كبراء المهاجرين ،وفيهم : أبو بكر ، وعمر ، وسعد بن عمرو بن

(٥٤) ك : الله تعالى .

(٥٥) ك : تعالى .

(٥٦) ك : تعالى .

(٥٧) ك : صلى الله عليه وسلم .

(٥٨) ك : اخبر عنه . وقوله : وقال لهم نبيهم ... سورة البقرة آية ٢٤٧ .

(٥٩) ك : عليه وسلم .

(٦٠) جعفر الطيار هو : جعفر بن ابي طالب (واسم أبي طالب عبدمناف) بن عبدالمطلب بن هاشم أخو علي بن ابي طالب ، وكان أسن من علي بعشر سنين ، صحابي من شجعان بني هاشم من السابقين الى الاسلام ، أسلم قبل ان يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم يدعو فيها ، وهاجر الى الحبشة في الهجرة الثانية ، فلم يزل هنالك الى ان هاجر النبي الى المدينة ، فقدم عليه جعفر وهو في خيبر سنة سبع ، وحضر وقعة مؤتة بالبلقاء من أرض الشام ، فنزل عن فرسه وقاتل ، ثم حمل الراية وتقدم صفوف المسلمين ، فقطعت يمناه ، فحمل الراية باليسرى فقطعت ايضا فاحتضن الراية الى صدره وصبر حتى وقع شهيدا وفي جسمه نحو تسعين طعنة من طعنات الروم ، فقيل ان الله سبحانه عوضه عن يديه جناحين في الجنة فسمي الطيّار ، وبذلك يذكره حسان بن ثابت :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

كان استشهاده سنة ثمان .

(انظر : الاصابة ٢٣٧/١ وصفة الصفوة ٢٠٥/١ ومقاتل الطالبيين ٣ وحلية الأولياء ١١٤/١ وابن سعد ٢٢/٤ والاعلام ١١٨/٢) .

(٦١) هو أسامة بن زيد بن حارثة من كنانة عوف، صحابي جليل ، ولد بمكة ونشأ على الاسلام وكان أبوه أول الناس اسلاما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه كثيرا ، وينظر اليه نظرته الى الحسن والحسين ، هاجر مع النبي الى المدينة ، وامره النبي قبل ان يبلغ العشرين على جيش فيه أبو بكر وعمر ، فكان موفقا مظفرا ، ولما توفى رسول الله رحل اسامة الى وادى القرى وسكنه ، ثم انتقل الى دمشق أيام معاوية ، وعاد بعد الى المدينة فأقام الى ان مات بالجرف سنة اربع وخمسين.

(انظر : ابن سعد ٤٢/٤ وابن عساكر ٣٩١/٢-٣٣٩ والاصابة ٢٩/١ والاعلام ٢٨٢/١) .

نفيل ، وسعد بن أبي وقاص[٦٢] ، ورجال[٦٣]ذوو أخطار وأقدار من البدريين والمهاجرين والسابقين الأولين .

فصل منه

ولو ترك الناس وقوى عقولهم، وجماح[٦٤]طبائعهم وغلبة شهواتهم ، وكثرة جهلهم ، وشدة نزاعهم الى ما يرديهم ويطغيهم ، حتى يكونوا هم الذين يحتجرون من كل ما أفسدهم ، بقدر قواهم، وحتى يقعوا[٦٥] على حد الضار والنافع ، ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء ، والأغذية والسموم ، كان قد كلفهم شططا ، وأسلمهم الى عدوهم ،وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم ، وأنفعها لهم ، ومن أجلها عدل التركيب ، وسوّى البنية ، وأخرجهم من حد الطفولية[٦٦] والجهل الى البلوغ والاعتدال ، والصحة وتسام الأداة والآلة ، ولذلك قال عز ذكره : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[٦٧] . ولو ان الناس تركهم الله تعالى والتجربة ، وخلاهم وسبر الأمور، وامتحان السموم ، واختبار الأغذية ، وهم على ما ذكرنا في ضعف[٦٨] الحيلة ، وقلة المعرفة ، وغلبة الشهوة ، وتسليط الطبيعة ، مع كثرة الحاجة والجهل بالعاقبة ، لأثرت[٦٩] عليهم السموم ، ولأفناهم الخطأ[٧٠] ، ولأجهز عليهم الخبط ، ولتولدت (١٣١ ب) الأدواء ، وترافت الأسقام ، حتى تصير منايا قاتلة ، وحتوفا متلفة ،اذ لم يكن عندهم الا أخذها والجهل بحدوثها ، ومنتهى ما يجوز منها ، والزيادة فيها ، وقلة الاحتراس من توليدها ، فلما كان ذلك كذلك ، علمنا أن الله تعالى ، حيث خلق العالم وسكانه ،لم يخلقهم الا لصلاحهم ، ولا يجوز صلاحهم الا بتبقيتهم ، ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة معنى ، ولما ان كان لابد للعباد من ان يكونوا مأمورين منهم[٧١] ، بين عدو عاص[٧٢] ، ومطيع ولى ، علمنا أن الناس لا

(٦٢) سعد بن ابي وقاص ، وابو وقاص مالك بن اهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، صحابي امير فاتح العراق والمدائن ، واحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر ، واول من رمى بسهم في سبيل الله ، واحد العشرة المبشرين بالجنة ، ويقال له فارس الاسلام ، اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وشهد بدرا ، وافتتح القادسية ، نزل الكوفة وكان واليا عليها زمن عمر وعثمان ، ثم عزله عثمان فعاد الى المدينة ثم كف بصره ، مات بالمدينة سنة خمس وخمسين .
(انظر : حلية الأولياء ٩٢/١ وابن عساكر ٩٣/٦ وابن سعد ٦/٦ والاصابة ترجمة ٣١٨٧ والاعلام ١٣٨/٣) .

(٦٣) في ك : وذوو أخطار . بحذف كلمة : رجال.

(٦٤) ك : وجماع .

(٦٥) ك : وحتى يقفوا .

(٦٦) ك : الطفولة .

(٦٧) سورة الذاريات ٥٦ .

(٦٨) ك : من ضعف .

(٦٩) في الأصل : لات . وهو سهو من الناسخ عن كتابة (ثر) من لأثرت .

(٧٠) ك : الخطر .

(٧١) ك : منهيين . ولعل الصواب : فهم .

(٧٢) في الأصل : عدو وعاص . وما في ك اجود .

يستطيعون مدافعة طبائعهم ، ومخالفة أهوائهم ،الا بالزجر الشديد ، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل ، بعد التنكيل في العاجل ، اذ كان لابد منأن يكونـ (ـوا)[٧٣] منهيين بالعمل معجلا[٧٤]، والجزاء الأكبر مؤجلا ، وكان شـأنهم ايثـارالأدنى ، وتسويف الأقصى ، واذا كانت عقـول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم ، فهمعن مصالح دينهم أعجز ، اذ كان علم الدين مستنبطا من علم الدنيا ، واذا كان العلم مباشرة أو شبيهابالمباشرة[٧٥] ، وعلم الدين غامض ، فلا يتخلص الى معرفته الا بالطبيعة الفائقة ، والعناية الشديدة،مع تلقين الأئمة ، ولأن الناس لو كانوا يبلغـون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم ، كانارسال الرسل قليل النفع ، يسير الفضل ، واذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل ، وحبهم للبقاء ،ورغبتهم في النماء ، وحاجتهـم الى الكفايـة ، ومعرفتهم بما فيها من السلامة ، لا يبلغون لأنفسهممعرفة ذلك واصلاحه ، وعلم ذلك جليل ظاهر ، سببه بعضه ببعض ، كدرك الحواس وما لاقته[٧٦]فهم عنالتعديل والتحوير[٧٧] وتعضّل التأويل[٧٨] والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز،وأجدر أن لايبلغوا منه الغاية ، ولايدركوا منه[٧٩] الحاجة ، لأن علم الدنيا أمران : اما شـيء يلي الحواس ، واما شيء يلي علم الحواس ، وليس كذلك الدين ، فلما كان ذلك كذلك ، علمنا أنهلابد للناس من امام يعرفهم جميـع مصالحهم .

ووجدنا الأئمة ثلاثة : رسـول ، ونبي ،وامام . فالرسول نبي امام ، والنبي نبي امـام ، (والامام امام)[٨٠] ، وليس برسول ولا نبي ،وانما اختلفت اسـماؤهم ومراتبهـم لاختـلاف الزمان[٨١] والطبائع ، وعلى قـدر ارتفـاع[٨٢]بعضهم عن درجـة بعض في العـزم والتركيب ، وتغير الزمان بتغير الغرض وتبـدل الشـريعة ،فأفضل الناس الرسول (١٣٢ أ) ، ثم النبي ، ثم الامام[٨٣] . فالرسول هو الذي يشرع الشريعة ،ويبتدىء الملة ، ويقيم الناس على حمل مراشدهم، اذ كانت طبائعهم لا تحتمل في ابتداء الأمر ، أكثرمن الحمل ، ولولا أن في طاقـة النـاس قبول التلقين ، وفهم الارشاد ، لكانوا هملا ، ولتركوانشرا أو حشرا[٨٤] ، ولسقط عنهم الأمر والنهي ، ولكنهم قد يفضلون من الأمور[٨٥] ، اذا أوردتعليهم ، وكفوا مؤونة التجربة ، وعلاج الاستنباط، ولن يبلغوا بذلك القدر ، قدر المستغني بنفسه ،المستبد برأيه ، المكتفي بفطنته عن ارشاد الرسل،

(٧٣) في الأصل و ك : من ان يكون . والوجه أن يكونوا .
(٧٤) في ك : منهيين بالتنكيل معجلا .
(٧٥) ك : او سببا للمباشرة .
(٧٦) في الأصل : وما لاقتهما .
(٧٧) ك : والتحرير .
(٧٨) ك : وتفضل .
(٧٩) ك : ولاكنه الحاجة .
(٨٠) ساقطة من الأصل وهي من : ك .
(٨١) ك : لاختلاف النواميس .
(٨٢) ك : انتفاع .
(٨٣) جاء في الاصل : فأفضل الناس الرسول ثم الامام ثم النبي ثم الامام . والامـام الاولى زائدة من وهم الناسخ .
(٨٤) ك : نشرا حشرا .
(٨٥) ك : بين الأمور .

وتلقين الأئمة ، وانما جاز أن يكون الرسول مرةعربيا ، ومرة عجميا ، وليس له بيت يحظره ، ولا شرف يشهر موضعه ، لأنه (حين)[٨٦] كانمبتدىء الملة ، ومخرج الشريعة ، كان ذلك أشهر من شرف الحسب المذكور ، وأنبه من البيتالمقدم ، ولأنه يحتاج من الاعلام والآيات والأعاجيب ، الى القاهر المعقول والواضح الذيلا يخيل أن يشتهر[٨٧] مثله في الآفاق ، ويستفيض في الأطراف ، حتى يصدع عقل الغبي ويفتق طبعالعاقل[٨٨] ، وينقض عزم المعاند[٨٩] ، وينبه[٩٠] من طول الرقدة ، وتخضع الرقاب ، وتضرعالخدود ، حتى يتواضع له كل شرف ، وينحل له[٩١] كل أنف ، فلا يحتاج حاله معه الى حال ،ولا مع قدره الى حسب ، وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء[٩٢] عقولها (...)[٩٣] ، وخبث عادتها ،وغلظ محنتها ، وشدة حيرتها ، تكون الآيات كفلق البحر ، والمشي على الماء ، واحياء الموتى ،وقصر الشمس عن مجراها ، لأن النبي الذي ليس برسول ، ولا مبتدىء ملة ، ولا منشيء شريعة انماهو للتأكيد والبشارة ، كبشارة النبي بالرسول الكائن على غابر الأيام ، وطول الدهر ، وتوكيدالمبشر ، يحتاج من الاعلام الى دون ما يحتاج اليه المبتدىء لأصل الملة ، والمظهر لغرض الشريعةالناقل للناس عن الضلال القديم والعادة السيئة والجهل الراسخ ، فلذلك اكتفى بشهرة اعلامه ،وشرف آياته [٩٤] ، وذكر شرائعه ، من شهرة[٩٥] بيته ، وشرف حسبه ، لأنه لا ذكر الا وهو خاملعند ذكره ، ولا شرف الا وهو وضيع عند شرفه .

(انتهاء الفصول) التي اختارها عبيدالله بنحسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رحمه الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين والصلاةوالسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

(٨٦) زيادة من ك ليست في الأصل .
(٨٧) في الأصل : الذي يشتهر . وما في ك اصح .
(٨٨) ك : ويضيء طبع العاقل .
(٨٩) ك : المعاند الأضل .
(٩٠) ك : وينتبه .
(٩١) ك : ويرغم له .
(٩٢) ك : وغباوة .
(٩٣) في الأصل كلمة مطموسة لم اتبين وجهها .
(٩٤) ك : وشرف آبائه .
(٩٥) ك : من عن شهرة .

القضاء على الامية يحقق مطامح

ثـورة ١٧ تمـوز

في بنـاء المجتمـع المتعلم

كتاب النســـاء

تحقيق ودراسة الدكتور

نوري حمودي القيسي

جامعة بغداد ـ كلية الآداب

تعود صلتي برسالة الجاحظ هذه الى اربع سنوات تقريبا ، عندما حاولت كتابة بحث عن « الحب والعشق والتوجه الاجتماعي في التراث العربي » وقد دفعني هذا البحث الى استقصاء الكتب والرسائل المنشورة في هذا الباب ، فكانت الرسالة من المصادر الاساسية التي اعتمدتها لما وقف عليه الجاحظ من مسائل ، وتحدث عنه من امور . ويعتقد الدكتور الحاجري ان سبب تأليف هذا الكتاب يعود الى خشية الجاحظ من اطالة كتا بالحيوان والخوف من اثقال القاري بعد ان وجد الكتاب قد اصبح بالصورة التي هو عليها ، بعد ان اخذ على نفسه عهدا في مقدمة الجزءالسادس بذلك ، فظهر الكتاب وقد خلا من هذه الابواب ، وقد كان من كبارها فيما يقول باب « القول في فصل ما بين الذكوره والاناث » وفي فصل ما بين الرجل والمراة خاصة(١) . ويعقب الدكتور الحاجري بعد ذلك فيقول : « ولكنه لم يلبث حتى بدا له ان يصل ما انقطع وان يراجع ما عدل عنه ، فيأخذ فيما اجتزأ عنه من قبل ، ويخص موضوع الذكورة والاناث كتابا على حدة ، وبهذه العزيمة بدا كتابا جديدا هو موضوع هذا الفصل»(٢) . ويستدلعلى ذلك من بعض فقرات الكتاب . والذي أراه ان الجاحظ قد تميز بكتابة اسلوب الرسائل ، ووجد فيها منهجا جديدا من مناهج المعالجة لبعض المسائل التي يريد ان يعالجها ، او يتفرغ لبحثها ، او ينصرف لاشباعها ، ولعل مجاميع الرسائل التي تركها والمباحث التي عرض لها فيها تؤكد هذا الاتجاه ، وتحدد المعالم التي كان يريد الوقوف عليها من خلال هذه الرسائل . وفصول الرسالة التي اختارها الامام عبيدالله بن حسان من كتب الجاحظ تكشف عن طائفة من المعاني التي بنى عليها الكتاب ، وترسم الصورة التي وضعها لكتابه ، على الرغم من الاضطراب الذي يسود الفصول ، والاختصار الذي يعتري الابواب .

ويمكن اعتبار كتاب الجاحظ هذا من اوائل الكتب التي تحدثت عن الحب من الجانب العلمي فقد اعتبر الحب اصل الهوى ، والعشق يتفرع من الهوى ، وقد حدد بعض ما يتشعب من اصل الحب من الرحمة والرقة ، فعرض لحب الاموال النفيسة، والمراتب الرفيعة وحب الرعية للائمة ، وحب المصطنع لصاحب الصنيعة مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، وتفاوت طبقاته في العواقب ، فالعشق ـ في عرف الجاحظ ـ اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب ، وليس كل حب يسمى عشقا . وانما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار . وقد استطاع الجاحظ ان يضع الحب موضوعا من موضوعات الدرس ، ويخضعه لضوابط وقواعد ، وهي محاولة اساسية في هذا الميدان ، وتوجه سليم من توجهات المعالجة الموضوعية لهذا الجانب النفسي والحياتي والذاتي .

واذا جاز لنا انتعتبر رسالة الجاحظ من الرسائل التي عالجت علم الجمال ، فان المباحث التي عرض لها ، ووقف عندها قد اكدت هذا الجانب ، وحددت كثيرا من المسائل التي يعالجها هذا العلم . ان الجاحظ يرى المراة اجمل شيء في الوجود ، ولاشيء يبلغ في الجمال مبلغها ، فهي

(١) الحاجري ، الجاحظ ، ٤٣٧ .
(٢) المصدر نفسه / ٤٣٧ .

أحسن من كل شيء تشبه به ، ولكن الشعراء والوصافين اذا أرادوا القول فشبهوها بأحسن ما يجدون .. وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب ، والتركيب العجيب.. ان هذه النظرات المتباعدة ، وغيرها من الملاحظات تشكل الصورة الجمالية التي حاول أن يبرزها الجاحظ من خلال هذه الرسالة ...

والصفة الجمالية للمرأة عند الجاحظ صفتان صفة تخص الجمال الظاهر ، وصفة تخص الجمال الباطن ، ويقف في صفة الجمال الظاهر عند جمال أعضائها ، وتناسقها وحسنها ويشير الى تشبيهها بالشمس والقمر وتشبيه عينها بعين البقرة ، وجيدها بجيد الظبية . أما صفة الجمال الباطن فهو الجمال الذي يدركه الرجل من المرأة ، لأن النساء ـ كما يقول الجاحظ ـ لا يبصرن من جمال النساء ، وحاجات الرجال ، وموافقتهن قليلا ولا كثيرا ، والرجال ـ كما يقول ـ بالنساء ابصر . وانما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فانها لا تعرف ذلك .. وهذا جانب يدلل على الخبرة التطبيقية التي كان يمارسها الجاحظ من خلال كتاباته ، ويحققها من تطلعاته وتساؤله ، ويهتدي اليها من خلال مجتمعه والاحاديث المتداولة ، وقدراته التي تمكنه من استكناه الاسرار ، ومتابعة الاحوال ، وتحليل الاخبار ...

ولعل تأكيد استحواذ جانب الحب على الرجل يشكل القضية التي حاول تأكيدها من خلال المثل أو الاستشهاد ، فالحب عند الجاحظ طبيعة انسانية ، وخلقة لا يمكن ان يتجاوزها ، أو يتخلص منها ، أو ينصرف عنها ، على الرغم من المشاغل الكثيرة التي تحيط به ، وتملك عليه جوانب حياته ، وقد وقف عندها أثناء حديثه عن العشق عندما استشهد برجلين من الناس ... وهو دليل آخر من أدلة المتابعة الدقيقة . ويتناول الجاحظ السعادة التي يتيحها الحب للعاشق اذا ظفر بمعشوقه ، ويعقد المقارنات بين أنواعها ، ويميز ضروب المتع فيذكر متعة الانتصار على الخصم ، والسماع للغناء ..

ان الرسالة التي قدمها الجاحظ في هذا المجال تشكل خطا واضحا من خطوط التوجه الصائب الذي ساد المرحلة الثقافية ، وان هذا الجانب لابد أن يكون موضع درس واهتمام من قبل الباحثين.. وقد وقفت عند بعض خصائص هذه الرسالة في البحث الذي نشرته(٣) حيث ذكرت أن حديث الجاحظ فيه كان حديث المدرك له ، العارف بآثاره ، وقد دافع الجاحظ فيه عن الحب دفاعا قويا ، وجعل دفاعه هذا حافزا من حوافز تأليف الكتاب ، وقد عالج فيه ثلاثة موضوعات ، أولها الحب (المرأة) وتحدث فيه عن المرأة ومكانتها ومنزلتها ومزاياها التي جعلتها موضعا للحب ، وجمالها الذي يراه اجمل شيء في الوجود . وهو جمالان ظاهر وباطن وعندما يتحدث عنه يكشف عن مواقعه ، ويعلل أسبابه ، ويدقق مواضعه ، وان حديثه فيه كان حديث الخبير الواعي ، والمدقق المتمكن ، والمتابع المستبطن ، وهي خصيصة عرف بها في كل مؤلفاته ، ولمسها القارىء عند كل ظاهرة يحاول معالجتها .

وثانيها (بسلطان الغريزة) وقوتها في حياة الناس ، وما تمليه هذه الغريزة من تصرف ، وتفرضه من سلوك ، وما تصنعه في البشر من حالة استحواذها عليه ، ولم يكن الحب ـ كما يرى الجاحظ ـ متفقا ، وانما هو يختلف قوة وضعفا ، وحدة وفتورا . وسبب هذا الاختلاف يعود الى طبيعة الرجل ، وما يداخل هذه الطبيعة من ملابسات ، ويؤكد من خلال ذلك سيطرة المرأة على الرجل واثرها في تفكيره واستحواذها على جزء كبير من هذا التفكير على الرغم من كل المشاغل التي تلف حياته ، والمتاعب التي تستغرق وقته .

ويدخل بعد ذلك في الموضوع الثالث وهو (السعادة) التي تعقب نوال العاشق معشوقه ، وهي ـ كما يرى ـ سعادة لا تعادلها سعادة ، ومتعة لا تشابهها متعة اخرى ...

ويعرض الجاحظ لمسألة خطيرة في ذكر القرابات ، وهي مسألة تتعلق ببناء الامم وتوحيد الشعوب ، فهو يرى ، ان تباغض الاقرباء عارض دخيل ، وتحابهم واطد اصيل ، ثم يؤكد ان القبيلة تنزل معا وترحل معا وتحارب من ناواها معا الا الشاذ النادر ... وان القرابة يد واحدة على من ناواهم وسيف واحد على من عاداهم ... ان هذه النظرة التي يضع مؤشراتها الجاحظ تمثل التوجه الذي كانت الامة تسعى اليه من اجل وحدتها وبنائها وتقاربها ثم يعود الى الوقوف عند مسألة القيادة التي يميل اليها ويعدها واجبة وهي ان الناس لا يصلحهم الا رئيس واحد ، يجمع شملهم ، ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم من ضعيفهم ثم يضرب لذلك المثل بالاجناس ، وهي نظرة فاحصة

(٣) نشر ضمن كتابي نظرات نقدية في الادب العربي / ٤٩ـ٥٠

تحسسها الجاحظ في المراحل الاولى لبناية الدولة العربية ، واكد سلامتها من اجل توحيد الامة وتحديد اهدافها ووضعها في الموضع الذي تستحقه.

ان هذه الرسالة ـ ترسم طموح الجاحظ ، المفكر العربي الذي وقف بقوة يقاوم كل تيار مناهض ، ويجابه كل ردة خائنة ، بفكر عربي اصيل ، واستيعاب موضوعي شامل ، وقد استطاع أن يضع المرتكزات الاساسية في ايقاف كل التيارات ويؤكد في نفوس ابناء الامة قدرتها على الابداع ووقوفها بوجه كل ترد .

أشار ياقوت(٤) الى ان كتاب النساء أضيف الى كتاب الحيوان وقال عنه : وهو الفرق فيما بين الذكر والانثى . وقال ابن النديم وهو يعقب على كتاب الحيوان وعلى كتاب آخر سماه كتاب النعل [هكذا] وبضمن كتاب الحيوان كتاب النساء . ورايت انا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى ، ويكنى ابا يحيى وراق الجاحظ(٥) . ثم ذكر ياقوت كتاب النساء مرة اخرى وهو يعرض لفهرست كتبه(٦) . واشار بروكلمان الى ان المتحف البريطاني يحتفظ بنسخة من « رسالة في العشق والنساء » تحت رقم ثاني ١١٢٩ : ٦(٧) ، واظنها هي مجموعة الرسائل المصورة المحفوظة في مكتبة الجامعة المصرية(٨) وهي مجموعة تضم مائتين وتسعا وتسعين ورقة ، مكتوبة بخط نسخي حديث ، وفي آخرها « انتهاء الفصول التي اختارها عبيدالله بن حسان من كتب ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى ، وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة اربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة واتم التحية على يد كاتبها الفقير عبدالله المنصوري . وهذه المجموعة تحتوي على فصول مختارة من الرسائل الآتية(٩) :

(١) من كتاب الحاسد والمحسود (ورقة أو مايليها) .

(٢) من كتابه في المعلمين (ورقة ٨) .

(٣) من كتاب التربيع والتدوير (ورقة ١٩) .

(٤) من رسالته الى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وصفة أصحابه (ورقة ٤١) .

(٥) من كتابه في طبقات المغنين (ورقة ٤٩) .

(٦) من كتابه في البناء (كذا) (ورقة ٥٢)(١٠) .

(٧) من رسالته الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة (ورقة ٦٢) .

(٨) من كتابه في حجج النبوة (ورقة ٨٨) .

(٩) من كتابه في خلق القرآن (ورقة ١٢١) .

(١٠) من كتابه في الرد على النصارى (ورقة ١٢٩) .

(١١) من كتابه في مقالة العثمانية (ورقة ١٦١) .

(١٢) من كتاب المسائل والجوابات في المعرفة (ورقة ١٧٥) .

(١٣) من كتابه في المعاد والمعاش (ورقة ١٨٥) .

(١٤) من رسالته الى محمد بن عبدالملك في الجد والهزل (ورقة ١٩١) .

(١٥) من كتابه في الوكلاء (١٩٤) .

(١٦) من كتابه في الاوطان والبلدان (ورقة ١٩٩) .

(١٧) من رسالته في البلاغة والايجاز (ورقة ٢١٩) .

(١٨) من كتابه في تفضيل البطن على الظهر (ورقة ٢٢٠) .

(١٩) من كتابه في النبل والتنبل وذم الكبر (ورقة ٢٢٧) .

(٢٠) من رسالته الى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة (ورقة ٢٣٨) .

(٢١) من كتابه في استحقاق الامانة (ورقة ٢٤٠) .

(٢٣) من رسالته في استنجاز الوعد (ورقة ٢٥٠) .

(٢٣) من رسالته في تفضيل النطق على الصمت (ورقة ٢٥٤) .

(٢٤) من كتابه في فضيلة الكلام (ورقة ٢٦٠) .

---

(٤) ياقوت : معجم الادباء ٦/٧٥ .
(٥) المصدر نفسه / ٧٥ .
(٦) المصدر نفسه / ٧٧ .
(٧) بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ٣/١١٥ .
(٨) الحاجري وكراوس ، مجموعة رسائل الجاحظ (و) .
(٩) اعتمدت على مجموعة رسائل الجاحظ بتحقيق الدكتور الحاجري في تثبيت هذه المعلومات .
(١٠) الصواب : النساء وهو الذي حققناه .

(٢٥) من رسالته في مدح التجار وذم عمل السلطان (ورقة ٢٦٥) .

(٢٦) من كتابه في الشارب والمشروب (ورقة ٣٦٨).

(٢٧) من كتابه في الجوابات في الامامة (ورقة ٢٧٨).

(٢٨) من كتابه في مقالة الزيدية والرافضة (ورقة ٢٩١ الى ٢٩٩) .

وتوجد من هذه المجموعة نسخة اخرى مطابقة لها في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية(١١) .

ونشرت بعض هذه الرسائل على هامش كتاب الكامل في اللغة والأدب « الفصول المختارة من كتب الامام أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب .. اختيار الامام عبيدالله بن حسان » سنة ١٣٢٣ هجرية وطبعت بمطبعة التقدم ، وقد اعتمدنا عليها في تحقيق نسختنا ورمزنا اليها بـ (ك) . ونشرت احدى عشرة رسالة من رسائل الجاحظ (بضمنها رسالة في العشق والنساء) سنة ١٣٢٤ وطبعت في مطبعة التقدم على نفقة الحاج محمد افندي ساسي المغربي ، وقد اعتمدنا عليها في تحقيقنا ورمزنا لها بـ (س) وهي ناقصة سنشير الى مواضع النقص عند المقابلة ، والرسالة في كتاب رشر ١٨٨–١٩٤ وكذلك احتوتها مجموعة رسائل السندوبي ٢٦٦–٢٧٥ التي نشرت عام ١٩٣٣ .

ان ندرة نسخة السندوبي التي مضى على طبعها حوالي نصف قرن ، ونقصان طبعة التقدم (١٣٢٤) لما يقرب من فصلين من فصول الرسالة ، وبقاء الرسالة هامشا على كتاب الكامل لما يقرب من خمس وسبعين سنة . ووقوفنا على نسخة جديدة من الرسائل تفضل بتصويرها الاخ الكريم الدكتور حاتم الضامن عن نسخة اصلية في مكتبة طوبقبو سراي تحت رقم ١٣٥٨ وعدد أوراقها (١٣٢) وهي نسخة مكتوبة سنة (١٠٨٠) عن نسخة مكتوبة سنة ٤٠٣ للهجرة .. هذه العوامل دفعتني الى اعادة نشر الرسالة الى جانب الاهتمام الذي وجدته يحملني الى وضع هذه الرسالة وغيرها من الرسائل بين أيدي الباحثين لما تحمله من فكر واضح ، وموضوع محدد ، حاول فيها الجاحظ ان يبرز فنه وقدرته ، ويؤكد معالجته معالجة دقيقة لغرضها .

ولا يسعني الا ان اقدم للاخ الدكتور حاتم الضامن الشكر والتقدير لتفضله باعطائي النسخة المصورة من الرسالة ، وفسحه المجال لي لنشرها ، جزاه الله عني خير الجزاء ووفقه لكل خير .

(١١) تنظر مقدمة رسائل الجاحظ بتحقيق الدكتور الحاجري (ح) .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى